# أغرب من الخيال !

عن الانجليزية

بقلم السيد ناصر عزيز منصور

[ قصة تمثيلية مؤلمة — تجارب مذهلة — والهامات مثيرة — تقرأ جميعها فى كلمات معدودة — بطريقان للمبيضة ! ... ]

* * *

أذهلنى ما كنتُ أكابد من شدّة التعب وألم الطوى عمّا يحدق بى ، عند ما ألقى الشرطى القبضَ علىّ لتشردى . . . حتى لقد هان عندى الذهاب إلى السجن فعلى أى حال سأصيب هنالك بعض الطعام !

تزاحمت الأفكار فى رأسى ... وتصوّرتُ بمرارة أنى فى الوقت الذى حلتُ فيه نفسى على سلوك طريق الصواب يكون السجن موئلى ! ... آه لو كنتُ قد قنعتُ بالبقاء فى ( انكلترا الجديدة ) ؛ إذاً لأمنتُ شرّ المتاعب ولعشت طوال حياتى سعيداً . ولكننى لم أُرد ذلك ... أردتُ أن أعمل ، ولمّا لم أجد إليه فى محلى سبيلاً شرعتُ فى الذهاب إلى ( كاليفورنيا ) يحدونى أمل الثور على شغل مربح هنالك ، وقد كنت صغير السن وأغرب .

سافرتُ إلى كاليفورنيا جاهلاً أن فيها من المتشردين أمثالى من تغصّ بهم الأزقة . فلما وصلتُ إليها لمستُ هذه الحقيقة المؤلمة ، ووجدتُ لديهم قوانين صارمة جداً تجاه المتشردين ، بحيث لو كان هنالك شغل لما وجدتُ إليه سبيلاً ...

وفضلاً عن ذلك ، فقد أُنذرت بترك المدينة أو التفضل للإقامة فى السجن !

وعلى ذلك سافرت إلى ( جامل ) المدينة الصغيرة الناعسة جنوبى كاليفورنيا — والتى تبعد عن الساحل قرابة الثمانين ميلاً . وما وطئت قدماى أرضها حتى ندمت على القدوم إليها إذ وجدتنى منهوك القوى شريداً . فأخذت أهيم على وجهى فى الطرقات باحثاً عن محسن يُلقمنى بعض الطعام ، وقد وجدت المحسن أخيراً ؛ وكان ذلك الشرطى الذى ألقى القبض علىّ !

قادنى الشرطى إلى بناء خشبى صغير ، يدل مظهره على قدمه ؛ وأخذنا نرتقى سلّماً خشبيّاً تئن ألواحه كلما اعتلتها أقدامُنا ، وما انتهينا منه حتى دلفنا إلى غرفة صغيرة كان أثاثها منصّة وكرسيين !

متشرد آخر أيها القاضى ! . . فاه الشرطى بهذه الكلمات للشخص الوحيد الذى كانت تحويه تلك الغرفة . ثم أردف : لقد تبينت فى مشيته تلكؤاً فاعتقلته !

نظرت إلى الحاكم بفضول ، فوجدته قصير القامة ، يدل محياه على حنان كامن فى ثنايا قلبه ! ... رفع الحاكم رأسه إلىّ ، وكان نصف مستيقظ . فقال بتراخٍ : حسن ! هل لك أن تدافع عن نفسك قبل أن تسجن عشرة أيام ؟ ...

وأمام هـذا الإنصاف الذى أولانيه القاضى لم أتمالك من الابتسام ... ولم يلبث هو نفسه أن ابتسم لابتسامى ، ولم يبد عليه أنه يزدريني رغم تشردى . ولقد تبينت فيه من الحنوّ والعطف ما خفف بعض مابى من حزن ، وما جعلنى أجد الحياة أقل مرارة !

لم يكن لدى ما أقوله ! فسحبنى الشرطى إلى السجن وهو بناء خشبى فسيح ، ذو زوج من الغرف المألوفة تناسبها تلك الأقفال الكبيرة المعلقة بها ، والتى لا يستغرق كسرها أكثر من دقائق ثلاث !

قال الشرطى بعد ولوجى السجن : هاتان سنتان لم يشرفنا خلالهما سوى اثنين ... لقد كانا فى حالة سكر شديد أفقدهما الصواب ! وأنت . . . أرجو ألا تفكر فى الهرب . فإنك ستنتقل إلى محل غير هذا بعد بضعة أيام ...

* * *

حقًّا ! ما أشد غرابة طريقة هؤلاء الناس فى معاملة المسجونين ! هذا ما خطر لى بعد ذهاب الشرطى عنى وبقائى وحيداً . تراءى لى موقفهم نحوى فوجدتهم قد أنصفونى فى قضيتى ... لقد وفروا لى الطعام والمأوى ... وبفضلهما دبت الراحة فى أنحاء جسمى وأخذتُ فى تحسّن مستمر . أما ذهنى فكانت تزدحم فيه الأفكار الطائشة ، حتى لقد ارتبتُ فى إمكانى المحافظة على الشرف والاستقامة اللذين قطعتُ على نفسى عهداً أن أتمسك بهما ! لقد أشرفت على نهاية اعتقالى ، ولم أكن أنتظر أن أجد لى شغلاً فإذا تُرانى فاعلاً ؟ هذا ما كان يقض مضجعى ولكن الأمور لم تلبث أن تغيرت تغيراً تاماً فتغير بذلك مجرى حياتى !

كان ذلك فى صباح اليوم الثامن من دخولى السجن . . . إذ أبصرت تزحزح باب غرفتى ، ثم أبصرت الشرطى يدخل كالثمل زاعقاً فى وجهى أن أخرج ! وفى ثانية واحدة كنتُ بجانبه متعجباً لتلك الثورة التى تجلت فى نبرته ، وأشد تعجباً لامتقاع وجهه ! تُرى أتكون فاجعة ؟ نظرت إليه وسألته باستغراب : ماذا دهى ؟ ... ما الأمر ؟ ... فكان جوابه أن جذبنى بعنف ... ثم دفعنى إلى الشارع الرئيسى المغبر ، ذلك الشارع الذى كان خلوّاً من الناس فى هـذا الوقت من الغرابة حقاً ! وبأصبعه المرتجفة أشار نحو الجبال الكائنة خلفنا . وقال بصوت أجش :

— ذلك هو السبب !

نظرتُ إلى الجهة التى أشار إليها ، فلم أقدر على تمييز شىء سوى سحابة قاتمة معلقة فى السماء . التفتُّ إليه وأخبرته بما رأيت . فكان جوابه :

— ليس ما رأيته سحابة ، وإنما هو دخان سببه حريق فى الغابة !

ولقد صرّح جوال الغابة بأنه أعظم وأفظع حريق شوهد إلى الآن !

— هل فى ذلك خطر على أحد؟ فنظر إلى بغرابة وقال :

— لقد نسيت أنك من الشرق ... إذاً فاعلم أنه إذا كان هنالك ما هو أشد رهبة وأعظم هولاً من

الجحيم ، فذلك هو حريق الغابة فى الجبال حول هذه الجلات ، صيفاً ، فى مثل هذه الرياح العاتية ! وذلك ما هو حال بنا الآن ! ...

وبتر حديثه فجأة ، وبعد هنيهة قال بتصميم :

— ليس من اللائق أن نواصل الكلام هنا ... يجب علينا أن نكون بجانب الحريق فى أسرع وقت ... وعلينا فى الوقت نفسه إيقاف من نراه فى الطريق ، هيا بنا ...

ولكننى لبثت فى مكانى جامداً ولم أتحرك . فإن لهجته الآمرة لم تعجبنى ، فصرخت فى وجهه :

— لماذا يجب أن أذهب ... أنا لست من هذه الأطراف ؟ !

وكان جوابه أن ثبت على وجهى عينيه الثقدتين ثم سحب مسدساً من الجراب المتدلى إلى جانبه . وقال بسماجة :

— إذا أبيت الذهاب بإرادتك ذهبت تحت ضغط المسدس . فاختر ما تريد ، واعلم أن مئات الأنفس حياتهم فى خطر ! !

طغت على نفسى حينئذ موجة جارفة من الخجل فأجبته بسرعة :

— عفواً . هيا بنا !

— هذا أكثر مما أردته . ثم أرجع المسدس إلى جرابه ، وأخذنا نسير بخطى واسعة إلى سيارة قديمة . وبصوت آمر قال : إقفز إليها ! وفى لحظة واحدة كنا نسابق الريح !

مرّت ساعة ... سلكنا أثناءها طرقاً صخرية ملتوية ... وفجأة شعرت بأن حرارة الحريق أصبحت لا تطاق ، والطريق لم تزل طويلة ... وقفنا السيارة وفى دقيقة أخليناها ، وأخذنا نسرع فى اتجاه مصدر النار !

وقفنا من النار عن كثب فوجدنا حوالى خمسين رجلاً يحاولون مكافحتها عبثاً ، كما تراءى لى ... تلك النار التى كان قطرها يقارب ربع الميل ، تزمجر فى زحفها بجانب الجبل قاصدة الحقول المتراصية القريبة !

طمأنت نفسى قليلاً إذ توهمت أن لا خطر من النار . فقد أجلتُ الطرف أمامى فلم أجد ما يمكن أن يكون سالحاً للاشتعال سوى أعشاب ونباتات غابية لا يعدو ارتفاعها خمسة أقدام ؛ ولكننى لم ألبث أن أدركت مدى ذلك الخطر عندما صوبت نظرى نحو الرجال . فرأيت نظراتهم التائهة الوانية ، واستلقاء بعضهم على بعض إعياء حاملين أكياس البارود المبتلة ! ثم إن حرارة النابة المشتعلة أخذت تتعاظم حتى أصبحت أعلى ما يمكن أن تكون !

* * *

رجعتُ بذاكرتى إلى ما قبل سنين معدودة ! فتجسم لى ذلك الحريق الذى شب آنذاك فى (جريفين پارك) بلوس انجلس ، والذى ذهب ضحيته عشرون رجلاً غريباً أثناء اجتماعهم هناك ... وأدركت حينئذ كيف يكون الموت ، رغم أن تلك النار لم يتجاوز ارتفاعها أربعة أقدام !

إنتبهت من خواطرى فإذا بى أبصر شخصاً قادماً وهو يلهث ، وقد بدا الإنهاك جلياً على قسمات وجهه ، ومن حوله كيس البارود المبتل يتأرجح ، ويضرب جانبيه !

أنعمت النظر فى ذلك الرجل فعرفته ، وكذلك عرفه الشرطى الذى كان بجانبى، وفى لحظة استلقينا على الأرض لئلا يرانا !

كان القادم هو القاضى بعينه ... ولم نكن نجسر على إنقاذه تاركين باقى الرجال يكافحون النار الجائمة لإخمادها ، وتطهير الأرض منها إبقاء لحياتهم ! وكانت رغبتنا إطفاء اللهيب بأسرع وقت (أولاً) ، والابتهال إلى الله أن يبعث إلينا بامدادات أخرى (ثانياً) ! !

أخذت سحب الدخان تهاجمنا فتسيل من أعيننا دموعاً كثيرة حتى أنى لم أعد أقدر على النظر إلا بصعوبة ، أما قلبى فكانت ضرباته القوية تصل مسمعى كلما لهثت فى التنفس ! ومع هذا الإنهاك الشديد لم يكن أحدنا يجسر على التوقف عن العمل لحظة واحدة حتى أننا كنا نتناول الماء بسرعة ونحن نلهث !

خذلتنا النار بلا رحمة ولا شفقة ، وأجبرتنا على التقهقر ، وامتزجت فرقعة الشعلة بأنفاس الرجال المبهورة ، وأصواتهم المبحوحة ، يتخلل ذلك أنين مؤلم ، صادر ممن وهنت قواهم أو لفحتهم ألسنة النار ! وعلى ذلك ... تراجعنا ، وأخلينا السبيل للنار تلتهم ما شاءت ! وبعد الظهر وصلت النار لأول بيت من بيوت الزارعين المتناثرة هناك ؛ ففزع الناس وأسرعوا فى الخروج من دورهم لا يلوون على شىء ! وقد كنت منشاغلاً عما حولى بالآلام المبرحة التى حدثت فى معدتى من جراء تعرضها للنار طوال هذه المدة .

وفجأة ! أبصرت امرأة ممتقعة الوجه ، مضطربة الأعضاء ؛ تخرج من الدار التى جاورها اللهيب ، وتقف بالقرب منى . تكلمتُ فأصغيتُ إليها ... وتمنيت ألا أحظى برؤية مثل تلك الصورة المحزنة ثانية !

كان هذا البيت وحديقة الخضراوات الصغيرة المحيطة به ، كل ما تملكه تلك البائسة من حطام الدنيا ! اقتربت منها النار وأخذت تتأجج بعنف لحظة ... ثم اكتسحتها كالهموم ، وبعد دقائق ... كان الرماد الأسود ، ورائحة الخضراوات المحترقة ، كل ما خلفته !

مرت ساعة أخرى التهمت النار خلالها ثلاثة بيوت أخرى ، وما يقارب الفدان من الخضراوات !

ثم ... لم يبق سوى بضع مئات من الياردات إلى حيث تقوم مجموعة بيوت المزارعين والأبنية الكائنة على الشوارع المتقاطعة ، ولم يبق هنالك أمل بنسبة واحد فى الألف لصد النار عنها !

* * *

بعد الشدة يأتى الفرج ! هذا ما أخذت أتمتم به حينما أبصرت ما يقارب أربعة وعشرين سيارة كبيرة تتقدم نحونا مارقة كالسهم ، ولما حاذت الشوارع المتقاطعة وقفت جميعها دفعة واحدة . فأحدثت أصواتاً شديدة ؛ ثم قفز منها ما يقارب مائتى رجل يحملون بسهم الرسمية ...

جنود من (كامب هكانج) شكراً لله ! صرخ الرجل الواقف بجوارى ، فسألته بلهفة :

— ألم يفت الأوان ؟

— بلى ، إذا استطعنا إخماد النار قبل أن تتعاظم .

وفجأة ، تضافرت قوى الطبيعة مع الرجال

لإيقاف النار الطاغية عند حدها ، فقد أصبح الهواء مشبعاً بألسنة النار فدبت العزيمة فى قلوب الجنود فقذفوا بأنفسهم فى مقدمة النيران يكافحونها بجنون ويسعون فى تطهير الأرض الكائنة أمام بيوت المزارعين . ولم تلبث أن تبعناهم بحماس شديد لإخماد النار التى أخذت فى تلك اللحظة تزأر زئيراً مخيفاً !

وأمام عزيمتنا الجبارة تخاذلت ألسنة النار وما لبثت أن خبت ، ولكن بعد أن لم يبق فى إمكان أحدنا المقاومة لحظة واحدة ... وهكذا فى ظرف نصف ساعة فاز الجنود أخيراً ورجحت كفتهم !

* * *

أبتُ إلى ( جامل ) بنفس السيارة التى رجع بها القاضى . . . وفى الطريق قال لى القاضى برقة : « يجب أن تأتى إلى دارى أيها الصغير . . . لقد استرقتُ إليك النظر اليوم ، فوجدتك قمت بعمل تشكر عليه . . . ولن تبقى فى السجن لحظة أخرى بعد الآن ! »

لقد غمرنى السرور لدعوة القاضى . . . فقد كنت أشعر بضعف بالغ وبتفكك فى جميع أعضائى ، وكان وجهى شبيهاً بوجه مريض متألم . ولم أسبر غور ما أنا فيه من هزال إلا بعد نزولى من السيارة ، فقد شعرت فجأة بطنين فى أذنى ... ثم أخذت أضواء السماء تتضاءل أمام ناظرى حتى زالت !

ثبت إلى رشدى فى غرفة واسعة مريحة على صوت نسائى رقيق كتغريد المناديب ، ولما فتحت عينى أبصرت أجمل وجه وقع عليه نظرى حتى الآن !

وأفقت من نشوتى على صوتها اللائكى وهى تقول بمرح : أنا زوجة القاضى . عليك بالهدوء والراحة فقط وستكون جيداً بعد يوم أو يومين على الأكثر وسيحضر زوجى حالاً لرؤيتك .

وما انقضت دقائق معدودة حتى ولج غرفتى القاضى وجلس على طرف سريرى ثم سألنى : هل تشعر بتقدم حسن ؟ ثم أضاف : فى الخارج لم يزل الشرطى بصحبة بعض الأولاد يستطلعون ويفتشون عن الأشخاص الذين سببوا الحريق

انتصبت مصعوقاً وقلت : « الأشخاص الذين سببوه ؟ هل تعنى أن هنالك حقاً بعض السفلة ممن سوّلت لهم أنفسهم إضرام تلك النار عمداً؟ ولكن لماذا ؟ ؟ » أجاب بجفاء : لأن الحكومة تدفع ثلاثة دولارات فى اليوم لكل متطوع فى إطفاء الحريق ! لذلك ، فمن لم يجد له شغلاً ، وأراد الحصول على عمل ليعيش فما عليه إلا أن يضرم النار ثم يتعاون لإطفائه ! وليست هذه أول مرة يلوذ فيها بعضهم للمعيشة بهذه الطريقة؛ ولقد أبصرت أخيراً أشخاصاً ممن لا يرتاح إليهم، يحومون حول هذا المحل، ومن المحتمل جداً أنهم مسببو هذا الحريق ، ومع ذلك فإنهم لم يتوقعوا بالطبع أن تأخذ النار ذلك المجرى ، بل كل ما أرادوا هو أن تبقى النار مضطرمة بهدوء ما يقارب الأسبوع أو أكثر . وتوقف القاضى لحظة ثم قال : هذا هو الطريق الوحيد لمعيشتك إذا لم تقدر أن تجد لك شغلاً !

وما سمعت كلامه الأخير حتى صحت فى وجهه بغضب :

— ماذا تعنى ؟ أتعتقد أننى سأفل إلى الدرجة التى أعمد فيها إلى إضرام النار ؟

— كلا ... ولكن الإنسان عند ما يجد نفسه متشرداً لا قدرة له على جلب قوته إبقاء لحياته عن طريق الشغل ... تثبتُ في رأسه كمية من الأفكار الجنونية وقد ينساق وراءها مرغماً ! أما أنت ... فاشاي أن أكون قد فكرتُ لحظة واحدة في إمكان انسياقك مع تيار تلك الأفكار ... لأنني أعتقد أنك ما خُلقت إلا لتكون مثال الرجل المدني العاقل ، وإنني لمسرور بإخبارك أنني وجدتُ عملاً لك

فأجبته بحماسة وحرارة :

— ذلك أعظم ما أسمعه ... وإنني أود لو علمت كيف أعبر لك عن شكري !

— حسن ... إن عملك هذا ليس أكثر من شغل بسيط عند صاحب المخزن الذي تحتنا وهو رجل كبير السن تعمل عنده ، وكما ترى إن هذا خير من لا شيء !

— سأنزل عند رغبتك ، وربما أمكنني الصعود إليكم دائماً بارتقائي السلم من محلي ! حقاً ؛ إن هذا المحل سيخلق مني خير مدني نجد في ( جامل ) !

***

وقد بت جاهلاً مقدار ما حزر الحاكم مما أضمرته قبل أن تفقدني النار صوابي ... ولكني لاحظت أنه لما انحنى ليصافحني ، شد على يدي بقوة !

( بغداد ) ناصر عزيز منصور


سيدتي
لا تخشى على مجوهراتك

سيدي
لا تخش على مستنداتك

اودعوها

خزائن بنك مصر الحديدية

فهي في الحفظ والأمان

بنك مصر يؤجر لكم خزائنه الحديدية القوية ويرعاها بعين ساهرة